عبد الحميد الكاتب

عصره:

كان عصر عبد الحميد عصر الإقبال والإدبار في الدولة الأموية. بلغ الأمويون قمة مجدهم في عهد الوليد بن عبد الملك، وتم نقل الدواوين إلى اللسان العربي في الأقطار، فتجلت الدولة عربية في عامة مظاهرها، واتسعت الفتوح في الشرق والغرب، وكانت الأندلس من جملة ما فُتح؛ فأنشأ بنو أمية في الجنوب الغربي من أوربا مملكة عظيمة، وبدءوا بنشر العربية بين البربر وشعوب إسبانيا، وأقام الوليد المصانع العادية في الحجاز والشام وما إليهما، تخلد مجد الدولة العربية، وتخرج المسلمين في بيوت عبادتهم من سذاجة البداوة إلى نيقة[1] الحضارة، وكثرت في كل بلد المرافق العامة، وكان ينفق أكثر ما يفضل من جباية الدولة على استحداث المساجد ودور المرضى والترع والجسور والطرق.

وفي هذا العصر استخلف سليمان بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز، فدُعي سليمان مفتاح الخير لرفعه المظالم، ورده المسيَّرين[2] وإخراجه المسجَّنين، وسار ابن عبد العزيز في الخلافة بسيرة العمرين أبي بكر وعمر، فأغنى الناس في عهده القصير، حتى لم يبق في أكثر الولايات من يأخذ الصدقة، وأبطل الحروب والغزوات، مجتزئًا بما فتحته العرب من البلاد، وحبب بحسن سيرته الإسلام إلى

(١) تنيق في مطعمه وملبسه: تجود وبالغ كتنوق، والاسم النيقة.

(٢) سيره من بلده: أخرجه ونفاه.

الشعوب، فدخل الناس فيه أفواجًا، في بلاد الهند والترك والخزر والبربر والقبط، وكانت صلاته بالروم على أحسن ما تكون عليه صلات دولتين متجاورتين.

وجاء هشام بن عبد الملك يحيي سنة أجداده في حسن التدبير والسياسة، ويضع للأموال نظامًا لا غبن فيه على الراعي ولا على الرعية، واستخذت[١] الروم في أيامه فأسر ملكها، وكان موقفًا في أعماله، عدَّ عهده آخر أيام السعادة في بني أمية، فلم يهنئوا بعده بالملك، ولا هنئت بهم الرعية، لانتشار الخلاف على الخلافة بين بني مروان، واضطراب المملكة بتقاتل أبناء العم، واشتداد المماراة بين أولياء العهد؛ إذ كان من العادة أن يولي الخليفة عهده من بعده اثنين غالبًا، وبدت العداوة بين اليمانيين والمضريين، فكان فساد الجيش، وتنازع آل البيت الممالك، مؤذنين بذهاب الملك.

وفي هذا العصر كثرت هجرة العرب إلى البلاد التي أظلتها الراية الأموية، كفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس، وعاونتهم الدولة بإقطاعهم الأرضين الشاغرة، وجعلت في بعض الأقطار جزية أهل الذمة طُعمة[٢] للمهاجرين، ترغيبًا لمن وراءهم للالتحاق بهم، فبدأ النقص في سكان جزيرة العرب، وذكّرت الغوائل بين قيس ويمن بما كان من الطوائل[٣] في الجاهلية، ورجعت العرب بالعصبيات إلى عادات لهم حظرها الإسلام، فأدى ذلك بالملة والدولة إلى أسوأ مصير.

وفي هذه الحقبة جرى تدوين العلوم، ولا سيما الحديث، دُوِّن بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد حاذر ضياع السنة بانقضاء عصر الصحابة والتابعين، وكثر

---

(١) استخذى: خضع وذل.

(٢) الطعمة: الرزق.

(٣) الطائلة: العداوة، والجمع الطوائل، وهي الذحول والأوتار.

تدوين اللغة والشعر، وتعلقت همة عالم قريش وحكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي بنقل كتب الطب والكيمياء والنجوم والحرب والآلات إلى العربية، وأعطى التراجمة والفلاسفة، وقرّب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الإسلام. ثم تُرجم كتاب في الطب وبدأ الأفراد بعد ذلك ينقلون من الفارسية والسريانية شيئًا من كتب السياسة والحكمة، يهدونها للخلفاء والأمراء من بني أمية.

وفي هذا الدور قوي أمر القدرية أو المعتزلة، وكانوا ظهروا بظهور الخوارج والشيعة، لما أنكر الخوارج على علي التحكيم في الخلافة يوم صِفِّين، وحكموا بكفر الفاسق، حكمهم بكفر من يسعى في سفك دماء المسلمين لمأرب دنيوي، وأخذ قوم يدعون المتساهل في دينه فاسقًا، ويجعلونه من المسلمين، وصرَّح بعضهم بأن الأمور كانت مقدرة عليه؛ وهبت خلال ذلك فرقة جاهرت بأن الإنسان مختار في أعماله، وأن الله لو أجبر الإنسان على عمله لم يؤاخذه عليه، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام: مؤمن وكافر وفاسق، ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن، واعتزلوا مجلس الحسن البصري فسموا المعتزلة، وهم الذين أحدثوا علم الكلام، وتابعهم في التأليف أناس ليسوا على مذهبهم، وهم الذين وسعوا بعدُ أصول الفقه، وأكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم.

وأراد عمر بن عبد العزيز أن يستتيب القدرية، أو يخرجوا من بلاده، واشتد بعض آله في إرهاقهم، لكن بعض الخلفاء من أخلافه ذهبوا بعد حين مذهب القدر، ومنهم مروان بن محمد الذي كتب له عبد الحميد الكاتب وعُرف به.

أصله وخلقه:

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري من عامر بن لؤي. ولؤي ينتهي إليه شرف قريش، ومن ولده عامر بن لؤي وولده حسل ومعيص. وقد قيل في نسبه: إنه عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب. ومعظم الروايات ترجح أن والده كان من الموالي. وإذا صح ذلك كان من أصل غير عربي، اللهم إلا إذا ثبتت سلسلة نسبه التي انتهت بابن عامر بن لؤي بن غالب. وفي رواية أن جده من سبي القادسية. وإذا صحت نسبته إلى أصل فارسي فيكون جده انضم إلى عامر بن لؤي؛ وقد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليها. والاصطخري يقول: إن عبد الحميد كان ممن يصلح من الفرس للدواوين من الكُتَّاب والعمال والأدباء، وكان له في بني أمية ولاء ينسب إليهم؛ فنسبته إلى عامر نسبة ولاء إذًا.

والمولى عند العرب، دون الحر الصريح، وفوق العبد الرقيق في المرتبة؛ والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العم، يجب على صاحبه أن ينصره ويرثه إذا مات ولا وارث له، ومنه حديث الزكاة: «مولى القوم منهم». والمولى هو الصاحب والقريب والجار والحليف والجمع موالٍ، ويكون المولى مولى عَتاقة ومولى تَباعة؛ فمولى العتاقة هو الذي يكون عبدًا أو أسيرًا فيعتقه صاحبه فيصبح المعتَق للمعتِق مولًى؛ ومولى التباعة هو من يُصطنع أو يُحالف أي يستتبع. ومن الواء أيضًا مولى الرحم وهو من يتزوج في قَبيل فينسب إلى قبيلهم. ودية المولى نصف دية الحر، وكذلك حكمه في العقوبات يناله منها نصف ما ينال الحر؛ أما في المواريث فمولى العتاقة يورِّث مولاه ولا يرث منه، ومولى التباعة لا يرث ولا يورّث، وحكم مولى الرحم كحكم الأحرار يرث ويورث.

كان الموالي في الجاهلية من أجناس ونحل مختلفة، فلما كان الإسلام أصبح غير المسلمين ذمة؛ وجعلوا في الجاهلية دية المولى، وهو الحليف، خمسًا من الإبل، ودية الصريح عشرًا. والصريح الخالص النسب، والحليف عند العرب مولى؛ والولاء بفتح الواو: القرابة، وبالكسر: ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في مِلكه، أو بسبب عقد الموالاة. إذا عرفت هذا فليس أمامك ما يمنع من جعل عبد الحميد من أصل عربي، وإن كان جده مولى تباعة لا مولى عتاقة، كأن يكون قد تزوج من بني عامر وانضم إليهم بسبب. هذا على شريطة ضعف الرواية القائلة بأن أجداده من سبي القادسية، وهناك تكون الفارسية أعلق ببيته من شعرات قَصِّه[1].

وكان بنو أمية كثيرًا ما يعتمدون على الموالي في كتابتهم ودواوينهم، فلم تمنعهم أصولهم من تولي أهم مناصب الدولة؛ فقد كان من كُتَّاب معاوية مولاه عبد الرحمن بن درَّاج، وكان على ديوان الرسائل لعبد الملك بن مروان أبو الزعيزعة مولاه، وكتب للوليد على ديوان الخاتم شعيب النعماني مولاه، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاه، وعلى المستغلات نُفيع بن ذؤيب مولاه؛ وكان يكتب لمسلمة سميع مولاه، وعلى ديوان الرسائل الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان، وعلى ديوان الخاتم المولى نُعيم بن سلامة؛ وكان يكتب لعمر بن عبد العزيز الليث بن أبي فروة مولى أُم الحكم بنت أبي سفيان، وكتب له إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير، وكتب للوليد بن يزيد سالم مولى سعيد بن عبد الملك، وكان عمرو بن الحارث مولى بني جُمح يتولى ليزيد بن الوليد الناقص ديوان الخاتم، وكان من الموالي على ديوان الرسائل لمروان بن محمد، عثمان بن قيس مولى خالد القَسري.

---

(١) القص والقصص (بفتح قافيهما) : الصدر أو رأسه أو وسطه أو عظمه، وفي المثل: هو ألزم لك من شعرات قصك.

ولقد ساد الموالي منذ الصدر الأول فما تولوا الكتابة للخلفاء والأمراء فقط، بل تعدوا ذلك إلى الرواية والعلم، وصار الفقه في معظم البلدان إليهم، حتى إن عبد الملك بن مروان سأل الزهري عمن يسود الناس، فلما ذكر له طائفة من الموالي في البلاد قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا؛ فلما ذكر له النخعي، وكان من العرب. قال عبد الملك: ويلك يا زهري فرَّجت عني! والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. فقال الزهري: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط.

إن ما اتصل بنا من أخبار عبد الحميد لم يصور لنا منه صورة تامة، فما عرفنا مولده، ولا البلد الذي ولد فيه من بلاد الشام، ولا نوع دراسته وأساتذته؛ ولكننا عرفنا أنه شامي عاصر بعض الخلفاء من الأمويين، وقيل: إنه من أهل الأنبار وسكن الرقة؛ فإن صحت هذه الرواية كان عراقيًّا غير شامي. وأطلق عليه ابن عبد ربه اسم عبد الحميد الأكبر، وعده ممن نَبُل بالكتابة، وكان قبل خاملًا، وقال: إنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد، ثم لم يزل كاتبًا لخلفاء بني أمية حتى انقضت دولتهم، وفي هذا القول نظر؛ لأن عبد الملك تولى سنة خمس وستين، وتوفي سنة ست وثمانين، فلا تكون سن عبد الحميد يوم مقتله أقلَّ من سبعين أو خمس وسبعين، وهذا يناقض ما سيمر بك من أنه غُمز عليه سنة ١٣٢ وهو عند ابن المقفع، ولم يعرف الموكلون بالقبض عليه أيهما عبد الحميد، وابن المقفع إذ ذاك كان في الكهولة، فلا يعقل إلا أن يكون صاحب الشرطة العباسي عارفا على الأقل بأن صاحبه شيخ هرم؛ ويميل إلى أن عبد الحميد كتب أولًا لهشام بن عبد الملك الذي ولي سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥ ثم لمروان.

والأرجح أن عبد الحميد تخرج في الكتابة بسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، ويقال: مولى المنذر بن عبد الملك، وقيل: سالم مولى سعيد بن عبد الملك، وكتب للوليد بن يزيد، ثم كتب له ابنه عبد الله بن سالم. وكان سالم ختن عبد الحميد؛ أي صهره زوج أخته، وهو أحد الفصحاء البلغاء، وقد نقل رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر، ونُقل له وأصلح هو، ولسالم رسائل مجموعة في نحو مائة ورقة، وبهذا يقال: إن عبد الحميد أخذ عن رجل بليغ يعرف الاستخراج من أدب اليونان وسياستهم، ولم يثبت أنه كان يعرف اليونانية كما وهم بعض أساتذة العصر، وربما شدا شيئًا من الأرمنية مدة مقامه في إرمينية كاتبًا لمروان. ويقول ابن هلال العسكري: إن عبد الحميد كان يحسن الفارسية ويأدب هذه اللغة تأدب، وعلى منوال حكمائها نسج، وأَلِف تطويل الرسائل واختصارها بحسب الحال. فمن الرومية أخذ بالواسطة، ومن الفارسية أخذ مباشرة، والفارسية ما كانت تقلُّ حكمة أهلها عن حكمة يونان.

ساعد عبد الحميد أدبه الفارسي على نبوغه في البلاغة العربية، ويقول عبد القاهر: إن من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بيّن في تلك اللغة، كامل الأداة، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها.

كتب عبد الحميد قليلًا عن هشام بن عبد الملك كما عرف من رسالة كتبها عن هشام إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن، وقد كان على اليمن منذ سنة ١٠٧؛ أي أن ديوان هشام كان المدرسة الأولى التي تخرج بأساتذتها عبد الحميد في علوم الإنشاء، ويمكن أن يقال: إنه كان من أول نشأته على اتصال مع من يعرف الخلفاء،

وما يقتضي لخدمة الحكومات من الأدوات، وذكروا أنه حدّث عن سالم بن هشام، ولعله سالم مولى هشام، وحدَّث عنه خالد بن برمك. وقالوا: إن عبد الحميد كان في حداثته معلمًا في الكوفة، ولعله مرن على حفظ مسائل كثيرة من تأديبه الأطفال زمنًا؛ والمؤدبون كانوا طبقة راقية في القرون الأولى للإسلام. وكانت الكوفة لما ألقى بها عصا الترحال لأول أمره محط رحال رجال العلم في الدين واللغة والنحو والتصريف، ولا شك أنه ثافن أهل البلاغة فيها وأخذ عنهم، وهناك حدث له غرام بتمثل كلام علي بن أبي طالب. فقد سئل: ما الذي خرَّجك في البلاغة؟ فقال: حفظ كلام الأصلع، يعني عليًّا، وكانت الكوفة من البلدان التي أحبها أمير المؤمنين وأحب أهلها وأحبوه.

وفي زمن لم نثبته جيدًا اتصل بمروان بن محمد وهو والٍ على إرمينية يحارب الخارج فيها على الخلافة، فكتب عنه، وحظي عنده، وانقطع إليه، ولما عقدت البيعة لمروان في الشام سجد مروان وأصحابه شكرا لله، إلا عبد الحميد، فقال له مروان: لِمَ لا سجدت؟ فقال: ولِمَ أسجد على أن كنت معنا فطرت عنّا؛ يعني بالخلافة؟ فقال: إذًا تطير معي، فقال: الآن طاب السجود وسجد. وكتب لمروان طول خلافته.

تُرى هل يكون الاختلاف في نسب عبد الحميد سببًا يدعونا إلى أن نرجح أن أجداده كانوا من سبي القادسية؟ وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فإنه تأثر لا محالة بعادات الفرس وعرف أساليبهم في الكتاب والخطاب. وعلى كل فإن المجال الذي جال في عقل عبد الحميد كان فسيحًا بالنسبة لعصره وأهل طبقته، وكان من اتصل بهم قبل أن يلي الكتابة عن الخليفة جماعة من المنظور إليهم في الأمة، ولهذا ولغيره؛ أي لمولده في الشام وتنقله في البلاد، دخل كبير في اتساع عقله وتجاربه.

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يحب عبد الحميد حبًّا جمًّا، ويرفع منزلته بين الكُتَّاب والعمال «ولا يرى الدنيا إلا به» لعلمه بنبوغه وتفرده في صناعته، وذهابه بفضل البلاغة وما ينبغي لها، حتى عرض عليه -لما أيقن أن أمره أدبر، وهزائمه تواترت، وسلطانه صائر إلى الزوال- أن يكون مع أعدائه لتسلم حياته، قائلًا: إنا نجد في الكتب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة، وسيضطر إليك هؤلاء القوم -يعني ولدَ العباس- لأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك، فاستأمِن إليهم، وأظهر الغدر بي، فلعلك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي، فقال له: وكيف لي بأن يعلم الناس جميعًا أن هذا عن رأيك، وكلهم يقول: إني غدرت بك، وصرت إلى عدوك؟ وأنشد:

وذنبـــي ظـــاهر لا شـــك فيـــه ... لمبـــصره وعـــذري بالمغيـــب

وأنشد أيضًا:

أُسِرُّ وفـــاءً ثـــم أُظهـــر غـــدرةً ... فمـن لي بعـذر يوسـع النـاس ظـاهره

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك، وأقبحهما بي، ولكني أصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. وهكذا تجلَّت في عبد الحميد فضيلة الوفاء، فآثر أن يُقتل مع صاحبه، على أن يتخلى عنه يوم الكريهة والشدة، وتجلت فيه خلة الشجاعة والاعتقاد بالأقدار؛ فهو الرجل الذي شارك سيده في سعادته وبلائه.

قيل: لما زال أمر مروان أتى المنصور بخواص مروان، وفيهم عبد الحميد والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي، فهمَّ بقتلهم جميعًا فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أُحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك؟ قال: تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء، فإذا بدأت تشرب رفعتُ صوتي بالحداء، فترفع رءوسها

وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك، فكان الأمر كما قال، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه. وقال له البعلبكي: استبقني يا أمير المؤمنين فإني مؤذن منقطع القرين. قال: وما بلغ من أذانك؟ قال: تأمر جارية فتقدم إليك طستًا، وتأخذ بيدها إبريقًا، وتصب الماء على يدك، فأبتدئ بالأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني، حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم. فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك، وأخذ البعلبكي في الأذان، فكانت حالها كما وصف. وقال عبد الحميد: يا أمير المؤمنين، إني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة. فقال: ما أعرفني بك؟! أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل، وعملت لنا الدواهي؛ وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه ويروى أنه سلمه إلى عبد الجبار فكان يحمي له طستًا ويضعه على بطنه حتى قتله.

ويقول اليعقوبي: إن عبد الحميد تخلّف بمصر واستتر حتى دُلَّ عليه صالح بن علي. وزاد غيره: إنه لما انهزم اختبأ في كنيسة في بوصير من أرض مصر. وقال آخرون: إنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمز عليه -وكان صديقه- وفاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفًا على صاحبه، وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلًا: ترفقوا بنا، فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم، وليمض البعض الآخر إلى من وَجَّهكم، فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذوا عبد الحميد. وفي رواية: أن عبد الحميد لم يختبئ في الجزيرة عند ابن المقفع، بل قبض ساعة قتل مولاه مروان، وأن عامر بن إسماعيل لما قتل مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه، فعرض عليه رءوس القتلى، لأنه قتل في ستة أو سبعة من خواصه، وكانوا معه، فعرَّفه رأسه، وحمل عبد الحميد إلى أبي العباس، فسلمه إلى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله. وهنا أيضًا اضطراب في رأي من ترجموا لعبد الحميد في نهاية أمره، كما

وقع الاختلاف في أصله، ولم يعقل أنه تخلَّف عن سيده في الجزيرة، والأرجح أنه قتل في مصر على رواية المسعودي.

بلاغته وأسلوبه:

كان عبد الحميد على ما قال صاحب العقد أول من فتق أكمام البلاغة، وسهل طريقها، وفك رقاب الشعر، وضربت الأمثال ببلاغته، وقد أشار البحتري إلى ذلك في قصيدته إلى محمد بن عبد الملك قال:

وتفننت في البلاغة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد

وقال ابن الرومي لأبي الصقر:

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده ... لكان بين يديه مذعنًا وسنًا

وقال ابن اسفنديار الكاتب:

وهو في الحذق والبلاغة في التـ ... ـطفيل[1] عبد الحميد في الكتَّاب

وقال أبو إسحاق الصابي:

أنسيتمُ كتبًا شحنت فصولها ... بفصول درٍّ عندكم منضود
ورسائلًا نفذت إلى أطرافكم ... عبد الحميد بهن غير حميد

وقال إبراهيم بن عباس الصولي وقد ذُكر عبد الحميد عنده: كان والله الكلام معانًا له، ما تمنيت كلام أحد من الكُتَّاب قط أن يكون لي إلا كلامه.

جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية، شرعها لكل من يحمل القلم بعده، فنقل الإنشاء من طور إلى طور لم يكد يتغير حتى عهد ابن العميد، وقالوا:

---

(١) طفل الكلام تطفيلًا: تدبره.

افتتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وبلاغة عبد الحميد لا تجنيس فيها، شأن من كانوا من فصحاء العرب قبله ممن كان «كلامهم محض البلاغة»، «اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقًا غير مقصود قصده»، وهو «أول من فك رقاب الشعر وسرح مقيده إلى النثر».

ومعلوم أنه قلما عهد التطويل في الرسائل على عهد الراشدين والأمويين، فابتدع عبد الحميد أسلوبه الجديد الخاص به، وكان ذلك عقبى تشعب أغراض الخلافة، وامتداد عمرانها، وانبساط ظل سلطانها، فنهج للكتاب سبل الإنشاء، وأعلى في العالمين ذكرهم، وشرَّف صناعتهم، وكانت قبله في الغالب لا تعد عملًا شريفًا من أعمال الدولة، ويتولاها على الأغلب الموالي ومن إليهم؛ فوَقر هذا الفن الصعب في النفوس حتى كان الإنشاء ينقل صاحبه من دواوينه إلى أرقى دواوين الملك.

كان عبد الحميد أول من أطال الرسائل، ولا يبتدئ بلولا، ولا، وإن رأيت، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فتابعه الناس على طريقته؛ والتحميد حمدك الله عز وجل مرة بعد مرة، وكثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، وهو أبلغ من الحمد، وربما سبق عبد الله بن المقفع إلى التحميدات، ولكنها لم تشتهر كما اشتهرت من ديوان عبد الحميد، وهو ديوان الخلافة يتناقل الناس عنه أكثر مما يتناقلون عن غيره.

ولم يكن عبد الحميد يطيل كل مرة في رسائله، بل يطيل مرة ويوجز مرة، لكنه إلى التطويل أميل؛ فصاحب هذا الانتقال في الكتابلة حافظ على إيجازها ما أمكن، لكن الزمان اقتضاه أحيانًا الإسهاب، فأسهب وأجاد في الطريقتين، خصوصًا إذا اقتضت الحال ذلك؛ مثل كتابه إلى أبي مسلم الخراساني الذي كتبه على لسان محمد بن

مروان لما ظهر أبو مسلم بدعوة بني العباس، كتب كتابًا يستميله ويضمنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم، وكان من كبر حجمه يُحمل على جمل، ثم قال لمروان: قد كتبت كتابًا متى قرأه بطل تدبيره، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك، فلما ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنار فأحرقه، وكتب على جُذاذة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى ... عليك ليوث الغاب من كل جانب
فإن يقدموا نُعمل سيوفًا شحيذةً ... يهون عليها العتب من كل عاتب

وقالوا: إن من جملة فقرات هذا الكتاب: «إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين»، ومعنى قول الراوين: إن كتابه من كبر حجمه حُمل على جمل، أنه كان مكتوبًا على رَقّ، وفي الرقوق تكتب الأسطر القليلة على الأغلب، وربما دعت كثرة الرقوق التي تضمنت هذا الكتاب أن لا ينهض رجل بحملها بل حملت لثقلها على جمل. وليس في هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب، مع ما عرف من تفننه في بلاغته، وهكذا جرى في رسالة أبي مسلم الخراساني، فأطال وحمدت إطالته، كما أطال في نصيحته لعبد الله ولي عهد مروان، فقد كتب كتابه هذا في صفحات كثيرة، فوضع ببيانه الرائع خططًا حربية، وطرقًا جديدة في النظام والإدارة والسياسة، وقواعد مهمة في التربية ولا سيما في تربية الملوك والعظماء، وأصولًا كلية في علم النفس والعادات المستحبة، ومعاملة المرءوسين وطلاب الحاجات وأرباب السعايات وأصحاب الأخبار. وبالإيجاز لا يتأتى لأحد أن يفيض فيما أفاض فيه من الأغراض العظيمة.

كان عبد الحميد يقول: أكرموا الكتّاب، فإن الله عز وجل أجرى أرزاق الخلق على أيديهم، وقال: إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب، ومن غرر كلامه: القلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، وكان

يقول: البيان في اللسان والبنان، ومن كلامه: خير الكلام ما كان لفظًا فحلًا ومعناه بكرًا، ويروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطًّا رديئًا فقال: أتحب أن يجود خطك؟ قال: نعم. قال: أطل جلفة[(١)] قلمك وأسمنها، وحَرِّف قطتك وأيمنها. قال: ففعلت ذلك فجاد خطي، وذكر صاحب الصناعتين أن عبد الحميد كان إذا استخبر الكاتب في كتابه، فكتب خبرك وحالك وسلامتك، فصل بين هذه الأحرف ويقول: قد استكمل كل حرف منها آلته، ووقع الفصل عليه.

وكان كثيرًا ما ينشد:

إذا خـــرج الكتّــاب كانــت دُويّهــم	قــسيًّا وأقــلام الـــدوي لهــا نَــبلا

قال زياد الأعجم: حضرت جنازة هشام فسمعت عبد الحميد ينشد:

ومـــا ســـالم عــــا قليـــل بـــسالم	وإن كثـــرت أحراســـه ومواكبـــه

يريد سالم بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الرحمن أبو العلاء مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وكان على ديوان الرسائل لهشام وللوليد بن يزيد.

وإن كــان ذا بــاب شــديد وحاجــب	فعــما قليــل يهجــر البــاب حاجبــه
ويـصبح بعـد الحجـب للنـاس مفـردًا	رهينـــة بيـــت لم تـــستَّر جوانبـــه
فنفـــسك أكـــسبها الـــسعادة جاهـــدًا	فكــل امــرئ رهــن بــما هــو كاسـبه

ورويت هذه الأبيات للأصمعي بتغيير البيتين الأخيرين إلى قوله:

ومــا كــان إلا الــدفن حتــى تفرقــت	إلى غـــــيره أفراســـــه ومواكبـــــه
وأصــبح مــسرورًا بــه كــل كاشــح	وأســـــلمه أحبابـــــه وحبائبـــــه

ومن شعره:

(١) بشرة.

كفـــى حزنًـــا أني أرى مـــن أحبـــه قريبًـــا ولا غـــير العيـــون تـــترجم
فأقـــسم لـــو أبـــصرتنا حـــين نلتقـــي ونحـــن ســـكوت خلتنـــا نـــتكلم

نموذجات من مختصراته ومطولاته:

وإذا جئنا نتعرف إلى عبد الحميد في مطالبه وحاجاته، وشفقته على نفسه وولده ورحمه، فلدينا مما أبقت الأيام عليه من رسائله نموذجات يتجلى لنا فيها روحه؛ منها ما كتبه إلى مروان في حاجة: «إن الله بنعمته عليَّ لما رزقني المنزلة من أمير المؤمنين، جعل معها شكرها مقرونا بها، فهي تنمى بالزيادة، والشكر مصاحب لها، فليست تدخلني وحشة من أبناء حاجتي، وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالي أغناني عن استزادته، ولكني تكنفتني مُؤن استنفضت[1] ما في يدي، وكنت للخُلف من الله منتظرًا، فإني إنما أتقلب في نعمه، وأتمرغ في فوائده، وأعتصم بسالف معروفه كان عندي».

ومنها ما أنشأه إلى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان: «أما بعد؛ فإن مما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بميزتها، واصطفيت بخصيصتها، كانت أسرَّ لي من هبة الله لي ولدًا أسميته فلانًا، وأمَّلت ببقائه بعدي حياة وذكرى، وحسن خلافة في حرمي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعًا لي إلى ربه، عند خلوته في صلاته وحجه، وكل موطن من مواطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدي، وظهر به سروري، وتعطفت عليه مني أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي، أُحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يَعْدِله عندي عظيمات الفوائد ولا مُنْفَسات[2] الرغائب، سرني به

(١) استخرجته.

(٢) مال منفس، ومنفس بكسر الفاء وفتحها: كثير.

واهبه لي على حين حاجتي، فشد به أزري، وحملني من شكره فيه ما قد آدني[١] بثقل حمل النعم السالفة إليّ به، المقرونة سراؤها في العجب بما رأت ما يدركني (؟) به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلًا من عواصف الأيام عليه. فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام، تأديبه بالزكاة وحرسه بالعافية، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته، والمدة في عمره، موصولًا بالزيادة، مقرونًا بالعافية، محوطًا من المكروه، فإنه المنان بالمواهب، والواهب للمنى، لا شريك له. حملني على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمي بحالك فيه (؟) وشركتك إياي في كل نعمة أسداها إليّ ولي النعم، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره، والسلام عليك».

ومنها ما أنفذه إلى أهله وهو منهزم مع مروان من فلسطين، وهو آخر حرب ومواقعة كانت له، وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء، يعزيهم عن نفسه: «أما بعد؛ فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقسامًا مختلفة بين أهلها، فمن دَرَّت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها، سكن إليها، ورضي بها، وأقام عليها؛ ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، قلاها[٢] نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا لها؛ وقد كانت أذاقتنا أفاويق[٣] استحلیناها، ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا[٤] مولية، فملح عذبها، وخشن لينها، فابعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان؛ فالدار نازحة، والطير بارحة [٥]. وقد كتبت والأيام

---

(١) آده الأمر: بلغ منه المجهود.

(٢) قليت الرجل أقليه إذا أبغضته، والقلى -بالكسر-: البغض.

(٣) الفيقة -بالكسر-: اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين، (ج): فيق بالكسر، وفيق كعنب، وفيقات وأفواق، (جج): أفاويق، والأفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة.

(٤) رمحتنا: رفستنا.

(٥) البارح من الصيد: ما مر من ميامنك إلى مياسرك.

تزيدنا منكم بعدًا، وإليكم صبابة ووجدًا؛ فإن تتم البلية إلى اقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم، نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار، نسأل الله الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأديان والأبدان، فإنه رب العالمين، وأرحم الراحمين».

وفي رواية أنه ختم هذه الرسالة هكذا: «فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدتت مثل ما تقربت، وأعقبت بالراحة نصبًا، وبالجذل همًّا، وبالأمن خوفًا، وبالعز ذلًّا، وبالجدَة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتًا، لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحباء».

ومن رسائله المختصرة ما كتبه عن مروان إلى هشام، يعزيه بامرأة من حظاياه: «إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته، متاعًا مده إلى أجل مسمى، فلما تمت له مواهب الله وعاريته، قبض الله العارية، ثم أعطى الله أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها، أنفس منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأسنى في العوض، فالحمد لله وإنا إليه راجعون».

وكتب موصيًا بشخص وهي من مختصراته: «حقُّ موصل كتابي إليك كحقه عليَّ، إذ جعلك موضعًا لأمله، ورآني أهلًا لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله».

وكتب عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن في السلامة: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو في نعمة الله عليه، وبلائه عنده في ولده وأهل لُحمته، والخاص من أموره والعام والجنود، والقواصي والثغور، والدهماء من

المسلمين، على ما لم يزل ولي النعم يتواه من أمير المؤمنين، حافظًا له فيه، ومكرمًا له بالحياطة لما ألهمه الله فيه من أمر رعيته، وعلى أعظم وأكمل ما كان يحوطه فيه، ويذب له عنه؛ والله محمود مشكور إليه مرغوب فيه. أحب أمير المؤمنين لعلمه بسرورك به، أن يكتب إليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع وأعظم المنازل؛ فازدد منه تزدد به، وحافظ عليه تحفظ به، وارغب فيه يهد إليك مريد الخير، ونفائس المواهب، وبقاء النعم. فاقرأ من قبلك كتاب أمير المؤمنين إليك، ليسرَّ به جندك ورعيتك، ومن حمله الله النعم بأمير المؤمنين ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين في بدنه، ورأفته بهم، واعتنائه بأمورهم، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام».

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خَرَج عن الطاعة وهو:

«أما بعد؛ فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المُرْدَ على الجُرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، يرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال[1]، رجال هم الرجال، بين رامح وناشب، ليس معهم إلا كلِبٌ محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب، قد ضَرُوا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام، ليسوا بذي هِينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الختوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاكٍ محتبك، في الحرب محترب[2]، قد شرب على ناجذ[3] االحرب وأكل، ذو

(١) الجريال -بالكسر-: صبغ أحمر وحمرة الذهب وسلافة العصفر وما خلص من لون أحمر وغيره، والخمر أو لونها كالجريالة فيهما، والمقصود هنا الصبغ الأحمر.

(٢) حرب كفرح كلب واشتد غضبه.

(٣) الناجذ: الضرس أو الناب.

شقشقة وكلكل[١]، كأنما أُشرب وجهه نقيع الحناء، قد رئم[٢] الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها ويأنس بقربها، فهو بطلبها أرِب، وعلى أهلها حرِب، ولا يروعه ما يروع، ولا يزيغه ما يُزيغ الغُمر الجبان، حين يشتد الوغى، وتخطر القنا، وتُقلِّص الشفاه، وتسفر الكماة، فعند ذلك تُسلمك المرد، وتكشف عن الجرد، فتأهب لذلك أُهبتك، واخطب له خِطبتك من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعًا فلا تنظرون، فما ضرَّنا إكثارك الجموع وحشدك الخيول، فإنك لا تكثّف جمعًا، ولا تسرب خيلًا، إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نصره، بما قد جرت به سنته، وسلفت به عادته، ونحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة. رأيتم ذلك في المنازل، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل؛ فأبشر منا بما ساءك ضجرًا، وعساك تُقاد كما يقاد الجمل المخشوش[٣]. أما بعد؛ فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك، إلا ما أحب من رب صنيعته قِبَلك، واستتمام معروفه إليك، وكان أمير المؤمنين أحق من أصلح ما فسد منك، وإنك إن عدت لمثل مقالتك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معالجتك رأيه، فإن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته، فأساء حمل الكرامة، واستثقل العافية، ونسب ما هو فيه إلى حيلته، وحسن نَبْيِه ورهطه وعشيرته، وإذا نزلت به الغِيَر، وانكشفت عماية العشا[٤] عنه، ذل منقادًا وندم حسيرًا، وتمكّن منه عدوه، قادرًا عليه وقاهرًا له. ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك، ومعاجلة

---

(١) الكلكل والكلكال: الصدر أو ما بين الترقوتين، والشقشقة -بالكسر-: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

(٢) رئم الحرب: أحبها وألفها.

(٣) خششت البعير: جعلت في أنفه الخشاش؛ أي: العود.

(٤) العشا مقصورة: سوء البصر بالليل والنهار كالعشاوة أو العمى، عشى كرضى، والعماية كالعماءة والعمية (كغنية) وبضم: الغواية واللجاج.

إفسادك؛ جمع بينك وبين من شهد فلتَات خطئك وعظيم زلتك؛ ولعمري لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك، وجحودك فضله عليك، لردك إلى ما كنت عليه، ولكنت مستحقًّا».

ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب، حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد، قائمين بالدولة العباسية: «فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكرة، فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين».

ومن رسائله المفردات، رسالته في الشطرنج والتنفير من اللعب به، وهي: «أما بعد؛ فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه، وبعث رسله إلى خلقه، دلالة لهم على ربوبيته، واحتجاجًا عليهم برسالاته، ومقدمًا إليهم بإنذاره ووعيده، {ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة}، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه، وقفَّى به رسله، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له، على حين انطمست له الأعلام مختفية، وتشتت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رَهَج الفتن، واعتلى قَتام[1] الظلم، واستنهد[2] الشرك، وأسدف[3] الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق، واستطرف الجور، واستنكح[4] الصدوف عن الحق، واقمطرَّ[5] تلهب الفتنة، واستضرم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر، وغيابة فساد، فصدع بالحق مأمورًا،

(١) الرهج: الغبار. والقتام كسحاب: الغبار أيضًا.
(٢) استنهد: طلب أن ينهض.
(٣) أسدف الليل: أظلم.
(٤) استنكح: غلب، وصدف عنه: أعرض.
(٥) اقمطر: اشتد.

وبلغ الرسالة معصومًا، ونصح الإسلام وأهله دالًّا لهم على المراشد، وقائدًا لهم إلى الهداية، ومنيرًا لهم أعلام الحق ضاحية[١]، مرشدًا لهم إلى استفتاح باب الرحمة، وإعلان عروة النجاة، موضحًا لهم سبل الغواية، زاجرًا عن طريق الضلالة، محذرًا لهم المهلكة، موعزًا إليهم في التقدمة، ضاربًا لهم على الحدود، على ما يتقون من الأمور ويخشون، وما إليه يسارعون ويطلبون، صابرًا نفسه على الأذى، والتكذيب، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب، حريصًا عليهم، متحننًا على كافتهم، عزيزًا عليه عَنَتهم[٢]، رءوفًا رحيمًا، تَقْدَمه شفقته عليهم، وعنايته برشدهم إلى تجديد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم، وسلامة أديانهم، وتخفيف أواصر[٣] الأوزار عنهم، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، ناصحًا متنصحًا، أمينًا مأمونًا، قد بلَّغ الرسالة، وأدى النصيحة، وقام بالحق، وعدل عمود الدين، حتى اعتدل ميله، وذل الشرك وأهله، وأنجز الله له وعده، وأراه صدق أسبابه في إكماله للمسلمين دينه، واستقامة سنته فيهم، وظهور شرائعه عليهم، قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفظعات الذنوب، ومهبطات الأوزار، وظلم الشبهات، وما يدعو إليه نقصان الأديان، وتستهويهم به الغوايات وأوضح لهم أعلام الحق، ومنازل المراشد، وطرق الهدى، وأبواب النجاة، ومعالق[٤] العصمة، غاير مدخر لهم نصحًا، ولا مبتغ في إرشادهم غنمًا.

فكان مما قدَّم إليهم فيه نهيه، وأعلمهم سوء عاقبته، وحذرهم أمره، وأوعز إليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة

---

(١) ضاحية: علانية.

(٢) يقال: وقع فلان في العنت؛ أي فيما شق عليه.

(٣) الأواصر: الأواخي واحدتها آصرة، والأواخي واحدتها الآخية بالمد والتشديد عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة.

(٤) المعلاق بالكسر: كل ما علق به شيء كالمعلوق بالضم.

عليها، لما في ذلك من عظيم الإثم، وموبق الوزر، مع مشغلتها عن طلب المعاش، وإضرارها بالعقول، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين.

وقد بلغ أمير المؤمنين أن أناسًا ممن قِبَلك من أهل الإسلام، قد أهجهم[١] الشيطان بها، وجمعهم عليها، وألف بينهم فيها، فهم معتكفون عليها، من لدن مُصبحهم إلى مُساهم، ملهية لهم عن الصلوات، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم، و(ما) افترض عليهم من شرائع أعمالهم، مع مداعبتهم فيها، وسوء لفظهم عليها، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس، غير منكر ولا معيب، ولا مستفظع عند أهل الفقه، وذوي الورع والأديان والأسنان منهم، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه، وكرهه واستكبره، وعلم أن الشيطان عندما يئس من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل، بمقر المسلمين ومجمعهم صُراحًا وجهارًا، أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزين لهم ورطة موبقة، وغرهم بمكيدة حيَله، إرادة لاستهزائهم بالخدع، واجتيالهم بالشبه والمراشد[٢] الخفية المشكلة، وكل مقيم على معصية الله صغرت أو كبرت، مستحلًا لها، مشيدًا بها، مظهرًا لارتكابه إياها، غير حذر من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائف مكروهًا فيها، ولا رعيب من حلول سطوته عليها، حتى تلحقه المنية فتختلجه[٣] وهو مصر عليها، غير تائب إلى الله منها، ولا مستغفر من ارتكابه إياها. فكم قد أقام على موبقات الآثام، وكبائر الذنوب، حتى مدَّ به مخرم[٤] أيامه.

---

(١) لهج بالشيء: أولع به.

(٢) المراشد: مقاصد الطرق، واجتالتهم الشياطين: صرفتهم عن هداهم إلى ضلالتها، وفي الحديث: «خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين».

(٣) الرعيب كالمرعوب، وتختلجه: تنزعه.

(٤) المخرم كمجلس: المنقطع.

وقد أوجب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم، وأن ينذرهم ويوعز إليهم، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها، وما لهم في قبول ذلك من الحظ، وعليهم في تركه من الوزر. فآذن[1] بذلك فيهم، وأنشده في أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز إليهم فيه، وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك[2] العقوبة لمن رُفع إليه من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها، وإطالة حبسه في ضبق وضنك، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين، وافطمهم عما نهجوا به من ذلك، والتمس بشدتك عليهم فيه، وإنهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه، واتباع أمير المؤمنين ورأيه، ولا يجدن أحد عندك هوادة[3] في التقصير في حق الله عز وجل والتعدي لأحكامه، فتحلّ بنفسك ما تسوؤك عاقبته، وتتعرض به لغيرة الله عز وجل ونكاله، واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله والسلام».

وعبد الحميد في رسالته هذه أشبه الوعاظ والفقهاء بلهجته، فقد رأيناه يكسو كلامه حلة من حلل الزهد، ويدخل مُدخلًا دينيًّا يورد فيه البراهين على قضيته، لينزع من النفوس حب التلهي بلعب يقطع صاحبه عن العمل، وذكر لهم أن اللاعبين بالشطرنج يذكرون خلال لعبهم ألفاظًا لا يليق بالألسن ترادها، ولا بالأسماع أن تنصت إليها، وعرفنا من رسالته بعد هذا أن أناسًا من المنظور إليهم من الفقهاء وغيرهم من الأئمة كانوا مولعين بهذا اللعب منذ أوائل القرن الثاني.

ومن رسالة: «فإن الفتنة تتشوف لأهلها بآنق منظر، وأزين ملبس، تجر لهم أذيالها، وتعِدهم تتابع لذاتها، حتى ترمِيَ بهم في حومات أمواجها مسلمة لهم،

---

(١) آذن: أعلم.

(٢) نهكه: بالغ في عقوبته كأنهكه؛ والنهك: المبالغة في كل شيء.

(٣) هوادة: لين ورفق.

تعدهم الكذب وتمنيهم الخُدَع، فإذا لزمهم عِضاضها، ونفر بهم[١] شماسها، تخلَّت عنهم خاذلة لهم، وتبرأت منهم معرضة، قد سُلبوا أجمل لباس دينهم، واستُنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم، من الغناء البهي منظره، الجميل أثره، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم، والإيجاف في التعب، وسوء المنقلب، فمن آثر دينه على دنياه، تمسك بطاعة ولاته، وتحرر بالدخول في الجماعة، تاركًا لأثقل الأمرين، وأوبل الحالين».

ومن رسالة له في وصف الصيد كتب بها إلى مروان فيما يظهر:

«...خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، وأكرمها أجناسًا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانًا، وأحدّها أطرافًا، وأطولها أعضاءَ، قد تثقفت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجائم، مجبولة على ما عُوّدت، ومقصورة على ما أدبت. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة[٢]، من الشهرية[٣] المصوفة بالنجابة، والجري والصلابة. فلم نزل بأخفض سير وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرًا متداركًا قَرَبت الأرض منه، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنابك[٤]، ومتشعبات الأعاصير، مهلةَ أن سرنا غَلَوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النُّوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسنًا، ولا مرموقًا أشبه شكلًا، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيل تمرح بنا نشاطًا، وتجذبنا أعنتها انبساطًا، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر، وتخفي سبيل

(١) العضاض: الداهية والزمن الشديد الكلب؛ وملك فيه عسف وظلم، وشمس الفرس شموسًا وشماسًا: منع ظهره فهو شامس وشموس.

(٢) دابة فارهة: نشيطة حادة قوية.

(٣) بكسر الشين ضرب من البراذين.

(٤) السنبك والجمع السنابك: طرف الحافر وجانباه.

السلام، تغشانا تارة، وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمثة التراب، أشِبة[١] الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيدًا من الظباء والثعالب والأرانب، فأدانا المسير إلى غاية دونها مألف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكل حَرَّة[٢] جونة متفرقون، فرجع بنا العود على البدء، وقد انجلت الضبابة وامتد النظر، فإذا نحن برَعلة[٣] من ظباء وخلفة آرام يرتعن آنسات، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا، فلم نعج إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغاية، ومنتهى نظر الشاخص، ثم مدت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاودها، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسف الأرض سفًا[٤]، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة[٥] بأظفارها، قد مزقتها تمزق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكض تحت مفره وخافق يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسانح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهاب.

ثم ملنا، يا أمير المؤمنين، بهداية دليلة قد أحكمته التجارب، وخبر أعلام المذانب[٦] إل غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف

(١) أشبة: ملتفة، ودمثة: سهلة لينة.

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، والجون الأسود والأنثى جونة.

(٣) الرعلة: القطعة من الخيل وقد تكون من البقر، والخلفة: اختلاف الوحوش مقبلة مدبرة.

(٤) السفيف: المرور على وجه الأرض.

(٥) صائدة.

(٦) مسائل الماء، والأعلام مفرده علم وهو منصوب في الطريق يهتدى به، والعلم: الجبل.

الخَمَر[١]، مملوءة من أنواع الطير، لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص، فخفق لها بالطبول، وصفر بنفير الختف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها، ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطالب لها، ويخفضن الظفر بها، حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضح[٢]، كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نُصِرت على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرحًا، ولا نستفيق من الجذل بها فرحًا، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب.

ثم غدونا، يا أمير المؤمنين، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزلَّ واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا على غير الحقيقة، فأتيناها فلم نر صيدًا ولا عشبًا، ولا نزهة ولا حسنًا، فجعلنا نسلك منها حزونًا ووعورًا، وجدوبًا وقفرًا، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النَّصَب. فبينا نحن كذلك؛ إذ بدا لنا جأب[٣] قد أوفى بنا على حائل[٤] دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأممناها فلما تطرفنا مشيًا وتقريبًا إلى عاناته[٥]، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات وهربن مسيئات، فأجْهَدَنا الركض في

---

(١) الخمر: الشجر المتكاثف، والمستأجمة: كثيرة الشجر الملتف، والتلاوين من لون البُسر تلوينًا بدا فيه أثر النضج، والتلوين أيضًا: تقديم الألوان من الطعام للتفكه والتلذذ، ويطلق على تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر.

(٢) النضح: البلل.

(٣) حمار وحشي.

(٤) الحائل: كل شيء تحرك في مكانه، وقد حال يحول واستحال الشخص: نظر إليه هل يتحرك.

(٥) العانة: الإتان والقطيع من حمر الوحش.

طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وأخاديد[1]، حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل، بجنبتيه غابة أَشبة، قد سبقن إليها، واستخفين فيها، فنظمناها بالخيل نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال» اهـ.

وهذه رسالة وقفتنا على مبلغ عنايتهم بالصيد، ووصفت لنا ما لاقاه الصائدون، وصفًا رائعًا مستوفيًا كأننا كنا معهم؛ وصف عُدَّتهم التي أعدوها، والأرض التي وطئوها، والشدة التي لقوها من سماء أمطرتهم وابلًا ورذَاذًا، وكيف استخدموا الجوارح في صيودهم، وما احتالوا من الحيل وحصروا من الوكد حتى تمت لهم أُمنيتهم، فصادوا ما شاء الله أن يصيدوا، وعادوا مملوءة عبابهم وجعابهم بأنواع الصيد.

ومن رسالة له في الفتنة: «ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم والتسليم لما أمروا به، فَهْمُ كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية مجللة، وسلامة ظاهرة وباطنة، وقوة بإذن الله مانعة، وفي الخلاف لهم والمعصية عليهم، ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة، ومحق كل قِنية، وهلاك كل سلامة وأُلفة، وموت كل عز وقوة، والدعاء بكل بلية، ومقارنة كل ضلالة، واتباع كل جهالة، وإحياء كل بدعة، وإماتة كل سُنة، وإجلاب كل ضرر على الأمة، وإدبار كل منفعة، والعمل بكل جور وباطل، وفناءُ كل حق، وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي بيديه سيف أخيه الذي كان يعتمد عليه، ويوهن عضده، ويهدم حصنه، ويفلُّ عدده، ويهلك ثروته، ويعطب من يدعوه، ويفزع إليه، ويكثر بمكانه،

(١) الدكادك: جمع دكدك وهي الأرض فيها غلظ، والأخاديد: جمع أخدود وهو حفرة مستطيلة في الأرض.

ويحرسه من غفلته عن الأعداء إذا غفل، ويكون عبئًا له من خلفه، فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يُهراق بغير حقه، وطفل من أبناء المسلمين قد يتم من أبيه، ومذلة قد دخلت عليه، ونعمة قد زالت عنه، ووحشة قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبت، وشحناء قد ظهرت، وأوتار[1] قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت، وخوف قد ظهر، وسبل قد قطعت، وامرأة قد أُرملت، وصِبية قد يتمت، وبلاد عامرة قد خربت، وعدد قد نقص، وبلايا قد عمت وشملت، وعدو قد شمت، ومنافق قد رَفع إلى ما كان يؤمل رأسَه، وعدو من المشركين قد طمع وقوي بعد ضعف، وعزَّ بعد مذلة، ورعية قد صاحت، وناعية قد ولولت، وحميم قد قتل حميمه، ومودة قد صارت عداوة، واجتماع من الأهواء قد عاد إلى فرقة، وأرحام قد تقطعت.

فانظروا يا معاشر المسلمين ماذا تفعل الفتنة والمعصية، وكيف يدب الشيطان لها، ويسعى فيها، ويحتال بخديعته ومكره، ولطف مسالكه حتى يُلهبها ويشعلها، ويرفعها من قلتها إلى الكثرة، ومن صغرها إلى كبرها، فإنه إنما يبدو الظفر على الولاة (؟)، ثم يترامى إلى الشكاة والسَّخطة والغضب، وزين لهم القتال فبلغ الهلاك الأعظم، والشر الأكبر، بطرق أمر صغير الخطر في الظاهر، عظيم البلية في الباطن، فلا يزال الرجل ينظر منهم إلى قاتل أبيه وأخيه وحميمه وذوي قرابته وأهل مودته والنافع كان، ثم تحمَّل العداوة في قلبه، والضغينة العظيمة عليه، ويستعد للنقمة منه، وطلب الذَّحْل[2] عنده، فبثت تلك الضغائن في الأبناء بعد الآباء؛ فانظروا يا أهل الإسلام من أين دب الشيطان بلطيف مسالكه، وعلى أي شيء ورد، وإلى أي أمر تسامى، حتى عم بالمعصية أهل الإسلام عامة» اهـ.

---

(١) الوتر بالكسر: الذحل؛ أي الثأر.

(٢) الذحل: الثأر أو طلب مكافأة بجناية.

واستفدنا أيضًا من هذه الرسالة أن البلاد كانت تموج بالفتن أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد الأموي، وأن عبد الحميد يريد بتأثير قلمه أن ينزع أهل الأقطار عن التردي[1] في مهالكها؛ ولكم كتب من مثلها منذ نادى أهل خراسان بشعار العباسيين يا ترى؟ وما نظن إلا أن مجموعة رسائله تبلغ أكثر من ألف ورقة، لا كما قال بعضهم، وقد عرفنا بهذا النموذج الضئيل الذي بقي من ذاك التراث العظيم أن صاحبنا كان بعيد النظر في السياسة، شديد الغيرة على سلطان بني أمية، عارفًا بما سيحلُّ بالدولة، وود لو يتحيل لها بمخرج ينجيها ولو بعض الشيء من المأزق الذي صارت إليه، حتى لقد أراد سيده على أن يعمد إلى الزواج السياسي، ويتقرب من بني هاشم بالإصهار إليهم. قال لمروان حين رأى علو أمر بني العباس: أتتهمني يا أمير المؤمنين فيك؟ قال: لا. فقال له: أرأيت إبراهيم بن محمد بن علي أليس ابن عمك؟ قال: بلى. قال: فإني أرى أموره تنبغ[2] عليك فأنكحه وانكح إليه، فإن ظهر كنت أعلقت بينك وبينه سببًا، وإن كفيته لم تُمْنَ بصهره. فقال: ويحك! والله لو علمته صاحب الأمر لسبقت إليه، ولكن ليس هو بصاحبه، فقال له: وما يضرك من ذلك، وهو من القوم الذين تعلم أن الأمر منتقل إليهم لا محالة، وأن الصواب أن تعلق بينك وبينهم سببًا؟ قال مروان: والله إني لأعلم أن الرأي فيما تقول، ولكني أكره أن أطلب النصر بأحراح النساء.

لعبد الحميد الأكبر رسالتان كبيرتان: الأولى رسالته في نصيحة ولي العهد، والثانية رسالته إلى الكتاب؛ كتب الأولى على لسان مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله، لما وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧، وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة

(١) تردى في مهواة: سقط فيها، ورديته تردية.

(٢) تثور وتفشو.

يمكن إجمالها في موضوعين مهمين: الأول: درس عظيم في تربية أبناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة، والثاني: وضع خطط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو. وقد أثبت عبد الحميد بهذه الرسالة أنه من علماء التربية والنفس، وأنه عارف بالسياسة والإدارة والحرب، يستطيع أن يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه.

بدأ رسالته في وصف الخارجي، وأن الخليفة أراد أن يعهد إلى ولي عهده عهدًا يحمله فيه أدبه، ويشرع له عظته، وإن كان ولي العهد في الغاية من الدين، والتحلي بما يَحْسُن بالخلافة، ولو لم يكن كذلك ما خصه أبوه بالولاية عنه دون بني أبيه؛ وقال له: إن الخليفة بوعظه ابنه أيضًا ائتمر بأمر الله، وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير، وإن كانوا أهل معرفة وأولي سابقة في الكمال وفضل في العلم. قال: ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، ولقنوه إلهامًا من تلقائهم، ولم يتعلموا شيئًا من عند غيرهم، لنحلناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة قصرهم بها عنهم خالقهم، المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته في إلاهيته... قال: وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق[1] بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خُلق، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعوِّده من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف، ومنجحة لك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر مغاني الأدب، مورثة لك أنفس ذخائر العز.

وبعد أن كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب، انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال: «والله أستخلف عليك، واسأله حياطتك، وأن يعصمك من زيغ

(١) حاق به شيء: نزل.

الهوى، ويحضرك دواعي التوفيق، معانًا على الإرشاد فيه، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو». وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من أجمل ما بدر على قلمه؛ ذلك أن الخليفة بعد أن خاطب ابنه خطابه عاملًا من عماله، عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده، ليوفق في مقاصده ويسلم في بدنه. ثم هوَّن عليه الأمر، وأبان له قدر نفسه، وما تيسر له من أسباب التفوق بأخلاقه فقال: «وقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها، من غير تعب البحث في إدراكها، ولا متطاول المنال لذروتها، بل تأثلت[1] منها أكرم معانيها، واستخلصت منها أعتق جواهرها، ثم شمرت إلى لباب مصاصها، وأحرزت مَنْفَس[2] ذخائرها، فاعتقد ما أحرزت، ونافس فيما أصبت». ومما قدمه له من العظة في ذلك أن يشكر الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية، وأن يقرأ فيه من كتاب الله جزءًا يردد فيه رأيه في أدبه، ويزين لفظه بقراءته، ويحضر عقله ناظرًا في محكمه، ويتفهمه متفكرًا في متشابهه؛ يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين، وتقوية ملكته في البلاغة.

وبعد ذلك التفت فقال: «ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق[3] الحسنات، ومفتاح السيئات، واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هَلكتَك، ويعترض غفلتك، لأنها خدع إبليس وحبائل مكره، ومصايد مكيدته، فاحذرها مجانبًا لها، وتوقَّها محترسًا منها، واستعذ بالله من شرها، وجدهدها إذا تناصرت[4] عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مثنوية[5] لرأيك بعد إصداره عليك، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاءة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا

(١) تأثلت: اكتسبت.

(٢) منفس: ما يتنافس فيه.

(٣) المغلاق بكسر الميم: ما يغلق به الباب.

(٤) تناصرت الأخبار: صدق بعضها بعضًا.

(٥) مثنوية: استثناء.

خلجة[١] شك فيها، فإن ذلك ظِهريٌّ[٢] صدق لك على ردها عنك، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك، وهي واقية لك سخطة ربك، داعية لك رضا العامة، ساترة عليك عيب من دونك... فحاول بلوغ غايتها، محرزًا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنًا أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة، حارسًا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي العادات».

«ومنها أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرك بالكتمان، وتداوي جندك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أوَدك، وأناتك فوقِّها لملال وفوت العمل، ومضاءتك فدرّعها روية النظر، واكنفها بأناة الحلم، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه عِيَّ اللفظ، وخف فيه سوء القالة[٣]، واستماعك فارْعه[٤] حسن التفهم، وقوِّه بإشهاد الفكر، وعطاءك فانهد[٥] له بيوتات الشرف وذوي الحسب، وتحرز فيه من السرف، واستطالة البذخ[٦] وامتنان الصنيعة، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصَر، وحلمك فزَعْه عن التهاون، وأحضره قوة الشكيمة[٧]، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط، وتعمد بها أهل الاستحقاق، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق، وخذ به واجب المفترض، وأقم به أوَدَ الدين، واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة[٨]، وتعهدك أمورك فحدّه

---

(١) خلجة: اضطراب.

(٢) ظهري: عدة.

(٣) يطلق القول في الخير، والقال والقيل والقالة في الشر.

(٤) أسمعه.

(٥) نهد الهدية: عظمها وأضخمها.

(٦) البذخ: الكبر.

(٧) الشكيمة: قوة القلب.

(٨) المثافنة: المباطنة، وفي رواية: المنافثة ومعناتها الأذية.

أوقاتًا، وقَدّره ساعات، لا يستفرغ قوتك، ويستدعي سآمتك، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي، ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكمها[١] عن البطر، وقيدها عن الزهد، وروعاتك فحطها من دهش الرأي، واستسلام الخضوع، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيده بخوف الفائت، وامنعه من أمن الطلب».

ثم ذكر له كيف يتخير عشراءه ويعامل مشاوريه، ويتوقى انتشار أخباره في العامة، إلا على ما لا يسقط من شأنه، فقال: «ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في سرك، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك، ممن قد حنكته السنُّ بتصاريف الأمور، وخبطته فصالها بين فراسن[٢] البزل منها، وقلبته الأمور في فنونها، وركب أطوارها عارفًا بمحاسن الأمور، ومواضع الرأي، مأمون النصيحة، مطويَّ الضمير على الطاعة، ثم أحضرهم من نفسك وقارًا، تستدعي منهم لك الهيبة، واستئناسًا يعطف إليك منهم بالمودة، وإنصاتًا يفلُّ إفاضتهم عندك بما تكره أن ينتشر عنك من سخافة الرأي، وضياع الحزم، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقطعك دون الفكر. وتعلّم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه سترك، وأغلقت عليه أبوابك، فذلك لا محالة مكشوف للعامة، ظاهر عنك وإن استترت بربها ولعل، وما أُرى إذاعة ذلك، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن، فتقدم في إحكام ذلك من نفسك وسدَّ خلله عنك، فإنه ليس أحد أسرع إليه سوءُ القالة، ولغط العامة بخير أو شر، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت فيه من دين الله، والأمل المرجو المنتظر فيك».

---

(١) شكم، يشكمه شكمًا: وضع الشكيمة في فيه، والشكيمة في اللجام الجديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفأس. وفأس اللجام هي الحديدة القائمة في الشكيمة إذا كان ذا عارضة وحد، (ج) شكائم وشكم.

(٢) الفرسن والجمع فراسن: رجل الجمل، والبزل كركع: جمع بازل وهو البعير إذا ظهر نابه، ومن المجاز: الرجل الكامل في تجربته.

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس، فكلمه في أمور عامة تنتظم بسيره وبسيرته فقال له: «وإياك أن يغمز[١] أحد من حامَّتك وبطانة خدمك، بضعفة يجد بها مساغًا إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه، ولا تخلو من الأحدوثة لائمته، ولا تأمن سوءًا فيه، ولا يرخُص سوء القالة فيه، إن نَجَم ظاهرًا، أو أعلن باديًا، ولن يجترئوا على تلك عندك، إلا أن يروا منك إصغاءً إليها، وقبولًا لها، وترخيصًا لهم في الإفاضة بها، ثم إياك أن يفاض عندك بشيءٍ من الفكاهات والحكايات، والمزاح والمضاحك، التي يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالًا لعيب يذيعونه، ولطعن في حق يجحدونه، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودَرَن العرض، وهدم الشرف وتأثيل[٢] الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد، فإذا قدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه، وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدًا وأعلى كمونًا، وأسرع إليه بالعيب، وتطرق الشين، منها إلى من كان في سنك من أغفال[٣] الرجال، وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمات الأمور ناطقًا عليهم لائحها، ظاهرًا عليهم وسمها، ولم تمحضهم شهامتها، مظهرة للعامة فضلهم، مذيعة حسن الذكر عنهم، ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعًا يدفعون به عن أنفسهم نواطق ألسن أهل البغي، ومواد أبصار أهل الحسد».

وعاد بعد أن حذره من الخفة في المواكب، ومداعبة من يسايره بالتضاحك إليه، يريده على أن يستعمل الجد في حركاته، بحيث لا تتقلقل جوارحه، ويحذره من السعاية، ويدله على الطريقة في معاملة النمامين، وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة

---

(١) أغمز في فلان: إذا عابه واستضعفه وصغر شأنه، والحامة: القرابة والأسرة.

(٢) التأثيل: التأصيل.

(٣) رجل غفل: لم يجرب الأمور.

معاملتهم، لا يأخذ منهم إلا ما ينفع الدولة فقط، ونهج له السبيل السوي في معاملة أصحاب الحاجات، فقال: «واعلم أن قومًا سيسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك من قبيل النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويوطئونك عشوة[١] الحيرة، ليجعلوك ذريعة لهم إلى استئكال[٢] العامة، بموضعهم منك في القبول منهم، والتصديق لهم على من قرفوه[٣] بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنة، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة، فيعرضك لابتداع[٤] في دينك، ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه، ويلحمك[٥] أعراض قوم لا علم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعيًا، وأظهر لك منهم متنصحًا.

وليكن صاحب شُرَطك، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك، إليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحك، ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يرتفع إليه منه، لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك، من غير أن يظهر ذلك للعامة، فإن كان صوابًا نالتك حظوته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطةً سعى بها كاذب، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر منك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب[٦] ذلك الخطأ بك، ولم تنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذم فيه، محضرًا إليه ذهنك وصواب رأيك، وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر، وتعتمد عليه فيه، أن لا يقدم على شيء ناظرًا فيه، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له، ولا

---

(١) العشوة: الظلمة.

(٢) استأكل الضعفاء: أخذ أموالهم.

(٣) قرف فلانًا: عابه أو اتهمه.

(٤) في رواية: لإيتاغ دينك، يقال: أوتغه أهلكه، وهذا مما يوتغ الدين والمروءة.

(٥) ألحم الحرب فالتحمت؛ أي: يعرضك للهلكة بقرض عرض من لا تعرف.

(٦) عصب القوم بفلان: أحاطوا به.

يعاقب احدًا منكلًا به، ولا يخلي سبيل أحد صافحًا عنه لإصحار[١] براءته، وصحة طريقته، حتى يرفع إليك أمره، وينهي إليك قضيته على جهة الصدق، ومنحى الحق، ويقين الخبر، فإن رأيت عليه سبيلًا لمحبس، أو مجازًا لعقوبة، أمرته بتولي ذلك من غير إدخاله عليك، ولا مشافهة لك منه، فكان المتولي لذلك، ولم يجر على يديك مكروه رأي، ولا غلظة عقوبة، وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلًا، أو كان مما قُرف به خليا، كنت أنت المتولي للإنعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه بإطلاق أسره، فتوليت أجر ذلك واستحققت ذخره، وأنطقت لسانه بشكرك، وطوقت قومه حمدك، وأوجبت عليه حقك، فقرنت بين خصلتين، وأحرزت خطوتين؛ ثواب الله في الآخرة، ومحمود الذكر في العاجلة.

ثم وإياك أن يصل أحد من جندك، وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك، أو حاجة يبدهك بطلبها، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفته لذلك ونصبته له، فيعرضها عليك منهيًا لها على جهة الصدق عنها، وتكون على معرفة من قدرها، فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سأل منها، أذنت له في طلبها، باسطًا له كنفك، مقبلًا عليه بوجهك، مع ظهور سرورك بما سألك، فسحة رأي، وبسطة ذرع، وطيب نفس؛ وإن كرهت قضاء حاجته، وأحببت رده عن طلبته، وثقل عليك إجابته إليها، وإسعافه بها، أمرت كاتبك فصفحه[٢] عنها، ومنعه من مواجهتك بها، فخفت عليك في ذلك المؤونة، وحسن لك الذكر، ولم ينشر عنك

---

(١) الإصحار: الوضوح.

(٢) يقال: أتاني فلان في حاجة فأصفحته عنها إصفاحًا إذا طلبها فمنعته. قال ابن الأثير: صفحته إذا أعطيته، وأصفحته إذا حرمته، وصفحه عن حاجته يصفحه صفحًا، وأصفحه كلاهما رده.

تجهم[١] الرد، وينلك سوء القالة في المنع، وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها بريء الساحة.

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود، وأتاك من الرسل، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إياك، وعلم ما قدم له عليك، وجهة ما هو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه، إذا وصل إليك فأصدرت رأيك في حوائجه، وأجلت فكرك في أمره، واخترت معتزمًا على إرادتك في جوابه، وأنفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته، قبل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك، فرفعت عنك مؤونة البديهة، وأرخيت عن نفسك خناق[٢] الروية، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر، وإجالة الفكر فيه، فإن دخل إليك أحد منهم، فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك، وطوى عنه حاجته قِبَلَك، دفعته عنك دفعًا جميلًا، ومنعته جوابك منعًا وديعًا، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له، والغلظة عليه، ومنعته من الوصول إليك، فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب، صارفًا عنك مؤونتها، ومسهلًا عليك مستصعبها».

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين، يريد بها أن يرفع مقامه بين الناس، على اختلاف مطالبهم، وأن يظهر بمظهر الكرامة، بعيدًا عن تجبيه قاصديه والتجهم لهم، وهو ضرب من حسن السياسة ما نخال رجال الدولة الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الأنظار، ويتركوا للمراجعين فسحة من الأمل، ولا يقطعوا معهم قطعًا بتًّا، وأن يستهدف صغار العمال للنقد وأفظع من النقد، والرئيس بمأمن، على حين هو الكل في الكل والصغير عن رأيه

---

(١) جهم: ككرم جهامة وجهومة، وجهمه كمنعه وسمعه استقبله بوجه كريه كتجهمه وله.

(٢) الخناق ككتاب: الحبل يخنق به، وكغراب: داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة والقلب، ويقال أيضًا: أخذه بخناقه بالكسر والضم ومخنقه أي بحلقه (القاموس).

صدر، ولإرادته نفذ، ولقانونه طبق، وماذا يصير هذا لو حمل الناس عليه بالطعن، وقد يفادى بالمئات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة، واستبقاء الكرامة والحظوة، في سبيل الرفع من مكانة الرئيس الأول، فإن بسقوطه سقوط الدولة، وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال. وحقيقة فإن من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلًا أكثر مما يوفق العظيم في الدولة؛ لأنه متمحض لذلك، ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الأمة إذا عمل صاحبه في جزئيات الأمور عملًا قد يجيده العامل الصغير، ويوفق فيه، ويوفر على صاحبه وقته، ويرفع في العيون شخصيته.

جوَّد عبد الحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك وسياسة الرعية، ثم أنشأ ينهج للمكتوب إليه طريقًا مهيعًا[1]، في سلوكه مع جلسائه وبطانته، وأهل مشورته وأعوانه، وفي أحوال نفسه. وتالله لقد لقنه هنا أدبًا، وحدد له عادات أشبه بقواعد الحياة العامة في الممالك المتحضرة اليوم. والعقل البشري على كثرة ارتقائه جيلًا فجيلًا، لن يبرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل ألف سنة يستحسن اليوم، وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا لأنفسهم منذ ثلاثة عشر قرنًا. قال عبد الحميد:

«احذر تضييع رأيك، وإهمالك أدبك، في مسالك الرضا والغضب، واعتوارهما إياك، فلا يزدَهِيَنَّك إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهويك منظره، ولا يبدون منك (في) ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلَّ بك، أو حادث إن طرأ عليك... وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام[2] أعراض الناس عندك بالغيبة،

(١) طريق مهيع: واضح واسع بيِّن، وجمعه مهايع.

(٢) استلحم: اتبع، وفي حديث أسامة: فاستحلمنا رجل من العدو؛ أي: تبعنا، يقال: استلحم الطريدة والطريق؛ أي: تبع.

والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض، أو النميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة، فإن ذلك أبلغ بك سموًّا إلى منالة الشرف، وأعون لك على محمود الذكر، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير.

واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق[١]، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله[٢]، فإن ذلك ضعف عن ملك سَوْرة الجهل، وخروج من انتحال اسم الفضل، وليكن ضحكك تبسمًا أو كشرًا في أحايين ذلك وأوقاته، وعند كل رائع مطرب، وقطوبك إطراقًا في مواضع ذلك وأحواله، بلا عجلة إلى السطوة، ولا إسراع إلى الطِيَرة، دون أن يكنف روية الحلم، وتملك عليها بادرة الجهل.

إذا كنت في مجلس مَلَكِك، حيث حضور العامة مجلسك، فإياك والرمي بنظرك إلى خاص من قوادك، أو ذي أثرة[٣] عندك من حشمك، وليكن نظرك مقسومًا في الجميع، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة، ووقار حسن، وحضور فهم مجتمع، وقلة تضجر بالمحدث، ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهًا بنظر ركين، وتفقد محض، وإن وجه إليك أحد منهم نظره محدقًا، أو رماك ببصره ملحًا، فاخفض عنه إطراقًا جميلًا باتداع وسكون، وإياك والتسرع في الإطراق، والخفة في تصريف النظر، والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقًا بنظره.

---

(١) الاتساع.

(٢) تنحل الشيء وانتحله: ادعاه.

(٣) في الحديث قال للأنصار: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا». الأثرة بفتح الهمزة والثاء: الاسم من آثر يؤثر إيثارًا إذا أعطى، أراد أن يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء.

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك، وتفقدك مجانسة قوادك، من قوة التدبير، وشهامة القلب، وذكاء الفطنة، وانتباه السّنة، فتفقد ذلك عارفًا بمن حضرك وغاب عنك، عالمًا بمواضعهم من مجلسك، ثم اغدُ بهم عن ذلك سائلًا لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك، وعاقتهم بالتخلف عنك.

إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير، وتعرف منه لين طاعة، وتشرف منه على صحة رأي، وتأمنه على مشورتك، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك، أن تريه أو أحدًا من أهل مجلسك أن بك حاجة إليه موحشة، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضش دونه رأيًا إشراكًا منك له في رويتك، وإدخالًا منك له في مشورتك، واضطرارًا منك إلى رأيه في الأمر يعروك، فإن ذلك من دخائل[1] العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسك، خائفًا لاعتلاقها ذكرك، واحجبها عن رويتك قاطعًا أطماع أوليائك عن مثلها عندك، أو غلوبهم عليها منك؛ واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر، ولكل أمر غاية تحيط بحدوده وتجمع معالمه، فابغها محرزًا لها، ورُمْها طالبًا لنيلها، وإياك والقصور عن غايتها، أو العجز عن دركها، أو التفريط في طلبها إن شاء الله تعالى.

إياك والإغرامَ[2] عن حديث ما أعجبك، أو أمر ما ازدهاك بكثرة السؤال، أو القطع لحديث من أرادك بحديثه، حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه، فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم، وقصر الأدب، عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساويها، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك، حتى يعلم

(١) الدخيلة: باطن الرجل ويقال لها: الداخلة، والدخلة بضم أوله وفتحه وكسره.

(٢) كذا في الأصل ولعلها الإعراب.

أن قد فهمت حديثه، وأحطت معرفة بقوله، فإن أردت إجابته فعن معرفة بحاجته، وبعد علم بطلبته، وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء، فأجزى عنك الجواب، وقطع عنك ألسن العتب.

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك، أو تضجر ممن حضرك، وعليك بالتثبت عند سَوْرة الغضب، وحمية الأنف، وملال الصبر في الأمر تستعجل به، والعمل تأمر بإنفاذه، فإن ذلك سخف شائن، وخفة مردية، وجهالة بادية، وعليك بثبوت المنطق، ووقار المجلس، وسكون الريح، والرفض لحشو الكلام، والترك لفضوله، والإغرام بالزيادات في منطقك، والترديد للفظك من نحو اسمع وافهم عني وياهناه، وألا ترى، أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل، الشائنة لذوي الحجا في المنطق، المنسوبة إليهم بالعي، المردية لهم بالذكر، وخصال من معايب الملوك، والسوقة عنها غبية النظر، إلا من عرفها من أهل الأدب، وقلما حامل لها، مضطلع بها، صابر على ثقلها، آخذ لنفسه بجوامعها، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها، واملك عليها اعتيادك إياها معتنيًا بها، منها كثرة التنخم والتبصق والتنخع، والثؤباء والنمطى والجشاء، وتحريك القدم، وتنقيض الأصابع، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الإيماض بالنظر، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته، أو السرار في مجلسك، أو الاستعجال في طعمك أو شربك، وليكن طعمك متدعًا وشربك أنفاسًا، وجرعك مصًّا، وإياك والتسرع في الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور. والشتيمة بقول يابن الهناة، أو الغميزة [1] لأحد من خاصتك، بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك، فإن ذلك كله مما يقبح ذكره، ويسوءُ موقع القول فيه، وتحمل

(١) الغميزة: المطعن أو المطمع. في القاموس وهن المرأة فرجها. ويقال للرجل: أقبل يا هن، ولها: يا هنة أقبلي.

عليك معايبه، وينالك شَيْنه، وينتشر عليك سوء النبأ به، فاعرف ذلك متوقيًا له، واحذره مجانبًا لسوء عاقبته.

استكثر من فوائد الخير، فإنها تنشر المحمدة وتقيل العثرة، واصبر على كظم الغيظ، فإنه يورث الراحة، ويؤمن الساحة. وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن أحوالهم، واستثارة دفائنهم، حتى تكون منها على رأي عين، ويقين خبرة، فتنعش عديمهم، وتجبر كسيرهم، وتقوِّم أودهم، وتعلم جاهلهم، وتستصلح حاسدهم؛ فإن ذلك من فعلك يورثك العزة، ويقدمك في الفضل، ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة، ويحرز لك ثواب الآخرة، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك، وقلوبهم المتنحية عنك.

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله، والخمول عند مباهاة النسب، وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرفة بك، فاعتمد عليهم من خلالهم في أمرك، وآثرهم بمجالستك لهم مستحقًّا منهم، وإياك وتضييعهم سفرطًا، وإهمالهم مضيعًا».

هنا انتهى الفصل الأول من هذه الرسالة وقد لمحنا فيها ما يهذب النفس، ويعرفها مصادر الأمور ومواردها، ويقفها على أحوال الناس ومعالجة مسائلهم؛ وقد ختمه بقوله: «هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرًا، وجمع لك شواذها مؤلفًا، وأهداها إليك مرشدًا، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت في مجامعها، وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتنل أنفس الحظوظ، ورغيب الشرف، وأعلى درجات الذكر، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن

الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها، وعافية يحلك أكتافها، ونعمة يلهمك شكرها، فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، وبه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير».

في الجزء الأول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبد الحميد أن يلقنها ولي العهد، وما يحاول أن ينزه عنه خلقه وعاده، ومجالسه ومواقفه، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته، وذوي الحاجات والظلامات منها، وما يجب أن يكون عليه في إدارته وسياسته مع عماله ونصائحه وأصحاب أخباره، حتى يظهر للملأ تام الأدوات، جميل المآني[1] والصفات. عظيمًا يضم في بُرديه ضروب الوقار وحسن السمت، وجمال العلم والأدب.

أما الجزء الثاني، فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها، فيعمل على نفاذه، لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته؛ وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله، والعمل بمراشده، واجتناب نواهيه، ووصف الدواعي إلى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة، فكان أضر على المسلمين من الترك والمشركين، وأوصاه برعاية من يمر بهم الجيش من أهل الذمة وأهل الملة، لئلا ينال الرعية ما ينالها على الأغلب، من كل جيش مرابط ومثاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع. فقال هذا:

«فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أُهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركنك الذي ترتجي به منازل الظفر، وتكتهف[2] به لمغالق الحذر، تقوى الله عز وجل، مستشعرًا لها بمراقبته،

(١) مأنى الأمر ومأناته: جهته.

(٢) اكتهف وتكهف: لزم الكهف، والكهف: المغارة.

والاعتصام بطاعته، متبعًا لأمره، مجتنبًا لسخطه، محتذيًا سنته، والتوقي لمعاصيه، في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه، متوكلًا عليه فيما صمدت[١] له، واثقًا بنصره فيما توتجهت نحوه، متبرئًا من الحَوْل والقوة فيما نالك من ظفر، وتلقاك من عز، راغبًا فيما أهاب[٢] بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه، محمود الصبر فيه عند الله، من قتال عدو المسلمين، أكلبهم عليهم، وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلًا لعامتهم. وآخذه بربقهم[٣] وأعلاه عليهم بغيًا، وأظهره فيهم فسقًا وفجورًا، وأشده على فيئهم الذي أصاره الله لهم مؤونة وكَلًا، والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوّض أمره، وكفى بالله وليًّا وناصرًا ومغيثًا وهو القوي العزيز.

ثم خذ من معك من أتباعك وجندك، بكف معرتهم، ورد مستعلي جورهم[٤] وإحكام خللهم، وضم منتشر قواصيهم، ولمّ شعث أطرافهم، وتقييدهم عمن مروا به من أهل ذمتك وملتك، بحسن السيرة، وعفاف الطعمة، ودَعَة الوقار وهَدي الدعة، وجمام[٥] المستجم، محكمًا ذلك منهم، متفقدًا لهم فيه تفقدك إياه من نفسك.

ثم اصمد لعدوك المتسمي بالإسلام، الخارج عن جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين، مستحلًّا لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبًا عن سنتهم، مفارقًا لشرائعهم، يبغيهم الغوائل، وينصب لهم المكايد، أضرم حقدًا عليهم، وأرصد عداوة لهم، من الترك وأمم الشرك، وطواغي الملل؛ يدعو إلى المعصية والفرقة، والمروق من الدين إلى

---

(١) صمد للأمر: قصده معتمدًا عليه.

(٢) أهاب بصاحبه: دعاه.

(٣) الربقة: حبل يوضع في العنق وجمعه ربق، وأكلبهم عليه: أحرصهم وأشدهم.

(٤) في الصبح: ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم.

(٥) الجمام كسحاب: الراحة؛ أي: راحة المستريح.

الفتنة، مخترعًا بهواه للأديان المنتحلة، والبدع المتفرقة، خسارًا وتخسيرًا، وضلالًا وتضليلًا، بغير هدى من الله ولا بيان، ساء ما كسبت يداه، وما الله بظلام للعبيد، وبئسما سولت له نفسه الأمارة بالسوء، والله من ورائه بالمرصاد، وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقلبٍ ينقلبون».

وقد رأينا بما نقلنا من جمله أنه عاد فأراده على الاعتصام بالمولى، وأدلى إليه بالوسائل إلى استصلاح عدوه من دون إهراق دم فقال له: «اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة، وأحسنه في الأمور موردًا، وأصحه في الرواية حزمًا، وأسلمه عند العامة مصدرًا، ما نيل ببسالة[1] الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة، ويمن النقيبة[2]، واستنزال طاعة ذوي الصدوف[3]؛ بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومنازلة الفرسان في معترك الموت، وإن ساعدتك طلوق[4] الظفر، ونالك مزيد السعادة في الشرف؛ ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب! وعضاض السيوف، وألم الجراح، وقصاص الحروب، وسجالها بمغاورة أبطالها، على أنك لا تدري لأي الفريقين يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب في الدولة؛ ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص، فحاول أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك، واشهرهما صيتًا في بدوّ تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك، وأقواهما شكيمة في حزمك، وأبعدهما من وصم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلهما ثوابًا عند ربك.

---

(١) في رواية: بسلامة.

(٢) النقبة: النفس.

(٣) صدف يصدف صدوفًا: انصرف ومال.

(٤) الطلوق: الاستبشار وانبساط الوجه.

وابدأ بالإعذار[1] إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة، وعزّ الأنفة، آخذًا بالحجة عليهم، متقدمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعيًا لهم إليه بألين لفظك، وألطف حيلتك، متعطفًا برأفتك عليهم، مترفقًا بهم في دعائك، مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم، وإحاطة الهلكة بهم، منفذًا رسلك إليهم بعد الإنذار، تَعِدُهم كل رغبة يَهِش إليها طمعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم، موطنًا نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عندك، قابلًا توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة، مرصدًا للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم، إجابة إلى ما دعوته إليه، وبصرته إياه من حقك وطاعتك، بفضل المنزلة وإكرام المثوى، وتشريف الجاه؛ وليظهر من أثرك عليه، وإحسانك إليه، ما يرغب في مثله الصادف عنك، المصرُّ على خلافك ومعصيتك، ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة، وما هو أملك به في الاعتصام عاجلًا، وأنجى له من العقاب آجلًا، وأحوطه على دينه ومهجته، بدءًا وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم معذرًا أو منذرًا إن شاء الله».

وهنا وصف له الطريقة التي يجب أن يتخذها لإرسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حالة العدو وإدراك نفسيته، وما يرغب فيه «مستشيرًا لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب»، وأن الواجب أن يعظم أمر عدوه لأكثر مما بلغه، أخذًا بالحزم، لئلا يكون مهين الجند، ولا مفرطًا في الرأي، ولا متلهفًا على إضاعة تدبير. وحذره جواسيسه أنفسهم مما يأتونه به من أخبار عدوه، وأن لا يعاقبهم إذا اتهمهم في خبر حملوه، ملتمسًا لهم الأعذار، ولعلهم أوتوا من تدبير العدو ومكيدته. وقال:

---

(١) أعذر: بالغ في العذر؛ أي في كونه معذورًا على ما أتاه.

«ألبسهم[١] جميعًا على الانتصاح، وأرجح لهم المطامع، فإنك لم تستعبدهم بمثلها، وعدْهم جزالة الثواب في غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم[٢] أمر عدوك».

«واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيرًا ما يصدقونك ويصدقونه، فلا تبدرن منك فرطة وعقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك، وابسط من آمالهم فيك، من غير أن تُري أحدًا منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له، أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه، أو ردتده عليه رد المكذب به، والمتهم له، المستخف بما أتاك منه، فتفسد بذلك نصيحته، وتستدعي غشه، وتجتر عداوته، واحذر أن يُعرف جواسيسك في عسكرك، أو يشار إليهم بالأصابع، وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك، ويكون هو الموجه لهم، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم؛ واعلم أن لعدوك في عسكرك عيونًا راصدة، وجواسيس كامنة، وأن رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويُعِدُّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه؛ فاحذر أن يُشهر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك، ويعرف موضعه فيعد له المراصد، ويحتال له بالمكايد، فإن ظفر به فأظهَرَ عقوبته، كَسَرَ ذلك ثقات عيونك، وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعذاب اجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا إلى أخذها على عُرض[٣] من غير الثقة ولا المعاينة، لقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المرجفة، واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضًا، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، ومما لأتهم عدوك، واجتماعهم على

(١) خالطهم، والتنصح: التشبه بالنصحاء.

(٢) الترقيق ضد التغليظ.

(٣) العرض بضم العين: الناحية، ومن الكلام فحواه.

غشك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم[١] على خيانتك، وأن يورط بعضهم بعضًا عند عدوك؛ فأحكم أمرهم، فإنهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك، وعليهم مدار حربك، وهو أول ظفرك».

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته، وأن يكون أوثق قواده عنده، وآمنهم نصيحة، وأقدمهم بصيرة في طاعته، وأصدقهم عفافًا؛ وأن يبسط من أمله مظهرًا عنه الرضا، حامدًا منه الابتلاء. وبيَّن له عمله في الجيش وسلطته على الناس. وقال له أن يولي القضاء في عسكره رجلًا من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن، وأيدته التجربة، ويكون ممن لا يداهن في القضاء وممن يعدل، وأن يُجري عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه، ليتفرغ لما حمله، ويعان على ما ولي؛ وأشار له أن ينتخب لطلائعه ذوي نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب، وشربوا مرار كئوسها، وأن ينتقيهم على عينه، ويعرض كُراعهم[٢] بنفسه، وبيَّن له ما يصلح من الخيل والسلاح، ووصف ذلك أبدع وصف، وحذره أن يَكِلَ مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانه وكتابه؛ لئلا يضيع مواضع الحزم، ويقف دون عزم الروية، لأنهم حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول مكيدته، وعروة أمره، وزمام حربه؛ وأن ينتخب للولاية عليهم رجلًا بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، له في العدو وقعات وصولات، وأن يجري عليهم وعليه أرزاقًا تسعهم، وتمد من أطماعهم، سوى أرزاقهم في العامة. وبعد هذا قال له أن يولي درّاجة[٣] عسكره، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم، رجلًا من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروفًا بالنجدة، ذا سن وتجربة؛ وأن يضم إليه عدة نفر من

---

(١) اجتماعهم.

(٢) كراعهم: خيلهم.

(٣) الدراجة: كجبانة الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال.

ثقات جنده، وذوي أسنانهم يكونون شرطة معه؛ ثم تتقدم إليه في إخراج المصاف، وإقامة الأحراس، وإذكاء العيون؛ وذكر له عمل هذا الرجل في الأخذ بالنافع لقيام أمر الجيش، ووقايته من العدو.

وأراده أن يفوض إلى أمراء أجناده وقواد خيله أمور أصحابهم، رياضة منه لهم على السمع والطاعة لأمرائهم؛ وحذره أن يعتل أحد من قواده عليه، بما يحول بينه وبين تأديب جنده، لأن ذلك مفسدة للجند؛ وحذره استخفاف الجند بقوادهم، لأن ذلك يؤدي إلى استخفافهم بأمره؛ وأن يوعز إلى قواده أن لا يقدموا على عقوبة أحد إلا عقوبة تأديب؛ أما عقوبة القتل أو إقامة حد في قطع أو إفراط في ضرب أو أخذ مال فلا يلي ذلك إلا هو، أو صاحب شرطته بأمره، وعن رأيه وإذنه.

ثم بسط له القول عند لقاء العدو إذا شام طلائعه كيف يكتّب خيوله ويعبي جنده، ويسير في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة، شاهرين الأسلحة، ناشرين البنود والأعلام، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم، معرفًا كل قائد أصحابه مواقفهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو؛ فإن ضلت دابة من موضعها عرف أهل العسكر من أي المراكز هي ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله منها فردت إليه؛ وأراده على أن يجعل على ساقته أوثق أهل عسكره صرامة ونفاذًا، ورضا في العامة، وإنصافًا من نفسه للرعية؛ وأن يجعل خلف ساقته رجلًا من وجوه قواده جليدًا ماضيًا عفيفًا صارمًا، شهم الرأي، شديد الحذر، غير مداهن في عقوبة، في خمسين فارسًا من خيله، يحشر إليه جنده، ويلحق به من يتخلف عنه؛ وأمره أن يعد العقوبة الموجعة، ويستصفي الأموال، ويهدم عقار كل من آوى أحدًا من الجند، أو ستر موضعه، أو أخفى محله، ثم قال:

ليكن رحيلك إيابًا واحدًا، ووقتًا معلومًا، لتخف المؤونة بذلك على جندك، ويعلموا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم، وتكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل؛ ومتى يكون رحيلك مختلفًا، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك، ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلالًا، أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك؛ آخذًا بجنبي قُوَّهته بأسلحتهم، عدة لأمر إن حضر، أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منكم نهزة، أو لمحت عندكم غِرة، ثم مر الناس بالرحيل، وخيلك واقفة، وأهبتك معدة، وجُنَّتك واقية، حتى إذا استقللتم[1] من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح، وهدوّ جلة، وحسن دعة؛ فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله، أو هممت بالمعسكر به، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله، والمعرفة بمرافقه، ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستثير لك علم دفينه، ويستبطن علم أموره، ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه، لتعلم كيف احتماله لعسكرك، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه؛ وهل لك إن أردت مقامًا به، أو مطاولة عدوك، أو مكايدته فيه، قوة تحملك ومدد يأتيه، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه، وقلة مياهه، وانقطاع مواده، إن أردت بعدوك مكيدة، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة، فإن ارتحلت منه كنت عَرَضًا لعدوك، ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلًا، وإن أقمت به أقمت على مشقة

(١) استقل القوم: ذهبوا وارتحلوا، والجنة بالضم: كل ما وقى.

وحصر، وفي أزل[١] وضيق، فاعرف ذلك وتقدم فيه؛ فإن أردت نزولًا أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس، فوقفت خيله متنحية من معسكرك، عدةً لأمر إن غالك، ومفزعًا لبديهة إن راعتك، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك، وعرفت موقعها من حرزك، حتى يأخذ الناس منازلهم، وتوضع الأثقال مواضعها، ويأتيك خبر طلائعك، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودبابات محيطين بعسكرك، وعدة إن احتجت إليها؛ ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة، قائدًا أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم، في كل يوم وليلة نُوَبًا بينهم، فإذا غربت الشمس، ووجب[٢] نورها، أخرج إليهم صاحب تعبيتك أبدالهم، عسسًا بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار، يتعاور ذلك قوادك جميعًا بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان».

وعلى هذا النحو وضع لولي العهد مخطط الحركات الحربية، ثم قال له أن يكون منزله في خندق أو حصن ليأمن فيه بيات عدوه؛ وأن يقطع لكل قائد ذرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه، فيحفروه عليهم خندقًا يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحَسَك؛ أي الأسلاك الشائكة، وإذا طرقهم طارق، أو فاجأهم عدو أن لا يتكلم أحد رافعًا صوته بالتكبير، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم، ويرشقونهم بالنبل مكتنّين بأترستهم، لازمين لمراكزهم، وأن يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، ليعرف مواضع عدوه من معسكره، وأن لا يشهروا سيفًا يتجالدون به، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب «قد ألبدوا بالأترسة، واستجنوا بالبَيْض،وأاتوا عليهم سوابغ الدروع وجباب[٣] الحشو»؛ وأراده على ألا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره، وأن عدوه إذا نكل عن الإصابة في جنده، فعليه

(١) الأزل: ضيق في العيش.

(٢) وجبت الشمس: غابت.

(٣) الجباب: الدروع.

أن يتبعه جريدة خيل، عليها الثقات من فرسانه؛ وتقدم إليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات أن يكونوا عليها وهم يطاردون أعداءهم، والصفات التي يجب على فرسانه أن يتصفوا بها ليغنوا غَنَاءَهم؛ ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم، وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلًا من أهل خاصته وثقاته ونصائحه «له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المتابعة، ويتعهدهم ودوابهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشمير وسرعة الإجابة عند الطلب». وقال له أن يوكل بخزائنه ودواوينه رجلًا ناصحًا أمينا، ويجعل معه خيلًا يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزانته وحولها، ويكون عامة الجند والجيش متنحين عنها لئلا تحدث فزعة، فينتهب الجند أنفسهم الخزانة.

وبعد أن نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء مُزَيّنًا للقائد أن يعمد إلى الخيل أولًا لا إلى القتال، وأن يدس إلى عدوه، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم، ويعدهم ويمنيهم، ويقطع أعناقهم بالمطامع. وقال له: ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتبًا كأنها جواب كتب لهم إليك، وتكتب على ألسنتهم كتبًا إليك تدفعها إليهم، وتحمل بها صاحبهم عليهم، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة، فلعل مكيدتك في ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم. وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة، وأن لا يظهر الجند تكبيرًا إلا في الكرات والحملات؛ أما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن، وأن يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها، ونعيم أهلها وسكانها.

وكتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أمية من الشرق بثلاث سنين. وقد عرفنا به أمورًا كثيرة من شئون تلك الأيام، ونمط حروبها

وغاراتها، والأخلاق الغالبة على أهلها، ما لا تعرف بعضه بالرجوع إلى الكتب المطولة، والأحاديث المنشرة؛ ودل بها عبد الحميد أنه رجل الدولة الأموية، ممن قد ينبغ مثلهم أواخر الدول، فيكونون لها سراجًا وهاجًا، وتطفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها.

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات من كلام إمام المنشئين نفسيته وعقله، بما لا تنهض بتعريفه التراجم المطولة التي يكتبها أصحابها، فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم. وبعض التراجم إذا أزلت منها جملًا معينة تليق أن تلبس على جسم أكثر الناس وروحهم، وترجمة المرء من كلامه أفعل أثرًا وأصدق قيلًا.

والرسالة الثانية لعبد الحميد هي رسالته إلى الكُتّاب، وقد تعد من مطولاته، قال الجهشياري: وجدت بخط ميمون بن هارون لعبد الحميد كتابًا إلى الكتاب أطال فيه، إلا أنه أجاد فلم أستجز إسقاط بعضه، وكتبته جميعه على طوله لأن الكاتب لا يستغني عن مثله وهو:

«أما بعد؛ حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله جل وعز جعل الناس من بعد الأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- ومن بعد الملوك المكرمين سُوَقًا[1]، وصرَّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرفها صناعةً: أهل الأدب والمروءة والحلم والرّوية، وذوي الأخطار والهمم، وسعة الذَّرع في الإنضال والصلة، بكم ينتظم الملك، وتستقيم للملوك أمورهم، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم، ويجتمع فيئهم، وتعمر بلادهم؛ يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر

(١) السوقة: خلاف المَلِك.

السنيّ والدنيّ من ولايته، لا يستغني عنكم منهم أحد، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون؛ أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها، وصارت إلى محاصلها، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصائحهم، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم.

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتَّاب، إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، إلى أن يكون حليمًا في موضع الحلم، فقيهًا في موضع الحلم، مقدامًا في موضع الإقدام، ومحجمًا في موضع الإحجام، لينًا في موضع اللين، شديدًا في موضع الشدة، مؤثرًا للعفاف والعدل والإنصاف، كتومًا للأسرار، وفيًّا عند الشدائد، عالمًا بما يأتي وما يذر، ويضع الأمور في مواضعها، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه شدا[1] منه شدوًا يكتفي به، يكاد يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته، ويهيئ لكل أمر أُهبته؛ فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثِقف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووُا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم، ولا يضعفن نظركم في الحساب، فإنه قوام كتَّاب الخراج منكم، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها، ومساوي الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتّاب؛ ونزهوا صناعتكم،

(١) شدا من العلم والأدب: أخذ طرفًا منهما.

واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة، وما فيه أهل الدناءة والجهالة، وإياكم والكبر والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة بغير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصلوا عليها، فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه حتي ترجع إليه حاله، وإن أقعد الكبَرُ أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته، وقديم معرفته؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحدب وأحوط منه على أخيه وولده، فإن عرضت في العمل محمدة فليضفها إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه، وليحذر السقطة والزلة، والملال عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى المرأة، وهو لكم أشد منه لها، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل إذا صحبه في بدء أمره من وفائه وشكره، واحتماله وصبره ونصيحته، وكتمان سره وعفافه وتدبيره، بما هو حريّ أن يحققه بفعاله، في غير حين الحاجة إلى ذلك منه، فابذلوا -وفقكم الله- ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة، والإحسان والإساءة، والغضب والرضا، والسراء والضراء، فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا وَلِي الرجل منكم، وصُيِّر إليه من أمور خلق الله وعباده أمرٌ، فليراقب الله -تعالى ذكره- وليؤثر طاعته فيه، وليكن على الضعيف رفيقًا، وللمظلوم منصفًا، فإن الخلق عباد الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعباده، ثم ليكن بالحق حاكمًا، وللأشراف مكرمًا ومداريًا، وللفيء موفرًا، وللبلاد عامرًا، وللرعية متألفًا، وليكن في مجلسه متواضعًا حليمًا لينًا، وفي استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقًا.

وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلائقه، كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألطف حيلة، وأحسن مداراة ورفق، فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحًا اتقاها من رجلها، وإن كانت جموحًا لم يهجها إذا ركبها، وإذا كانت شموسًا توقاها من ناحية يدها، وإن خاف منها عِضاضًا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونًا لم يلاحِها[1] وتتبع هواها في طريقها، وإن استمرت عطفها فيسلس لها قيادها. ومن هذا الوصف من سائس البهيمة، ورفق سياسته، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم، وخدمهم وصحبهم.

والكاتب بفضل رأيه، وشرف صناعته، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره ويناظره، ويفهم عنه ويخاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تحير جوابًا، ولا تعرف خطأ ولا صوابًا، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها، وصاحبها الراكب لها؛ فأدقّوا -يرحمكم الله- النظر، وأعملوا فيه الروية والفكر، تأمنوا ممن صحبتموه -بإذن الله- النَّبْوَة، والاستثقال والجفوة، ويصيروا منكم إلى الموافقة، وتصيروا منهم إلى المواساة والشفقة إن شاء الله.

ولا يُجوزنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه، وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره -قدر صناعته؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير، وخزان وحفظة لا يُحتمل منكم التضييع والتبذير؛ واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عددت عليكم، فنعم العون عونكم على صيانة دينكم، وحفظ أمانتكم، وصلاح معاشكم؛

(١) لاحيته ملاحاة ولحاء: إذا نازعته.

واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما، ولا سيما الكُتَّاب.

وللأمور أشباه، وبعضها دليل على بعض؛ فاستدلوا في مؤتنف أعمالكم، بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأرجحها حجة، وأحمدها عاقبة. واعلموا أن للتدبير آفة وضدًّا[1] لا يجتمعان في أحد أبدًا، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على إنفاذ عمله ورويته؛ فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره، قصد الكافي في منطقه، وليقصد في كلامه، وليوجز في ابتدائه، وليأخذ بمجامع حججه حجته، فإن ذلك مصلحة لعقله، ومجمة لذهنه، ومدفعة للتشاغل من إكثاره، وإن لم يكن الإكثار عادة، ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس، ولا يدعون الرجلَ منكم صنعُ الله -تعالى ذكره- له في أمره، وتأييده إياه بتوقيفه، إلى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان، أو قال قائل، إن ذلك الصنع لفضل حيلته، وأصالة رأيه، وحسن تدبيره، كان معترضًا لأن يكله الله إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف. ولا يقل أحد منكم إنه آدب وأعقل، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب، القائل: إن صاحبه أعقل منه، وأحمقهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه، لعجب هذا بنفسه، ونبذ ذلك العجب وراء ظهره، إذ كان الآفة العظمى من آفات عقله؛ ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه، من غير عجب برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر على أخيه وكفئه، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته.

---

(١) كذا وفي رواية: (واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل) إلخ.

وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل: (من يلزم الصحة يلزمه العمل)، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخره وختمته به؛ تولانا الله وإياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله».

وبهذا الكتاب أيضًا عرفنا منازع عبد الحميد وأدبه؛ وأنه يريد أن يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس، وتفيد الآخرين أنفسهم بأدبها، وأن الكتابة تحتاج إلى أدوات كثيرة، ذكرها مفصلة؛ ولا بد بعد الاضطلاع بأعباء ما يلزم لها من العلوم أن يلم الكاتب بكل موضوع ولو إلمامًا خفيفًا؛ ومن أحلى ما في رسالته أن يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة، ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم. فلا عجب بعد هذا أن كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة، ما زال الناس يأخذون منها في العصور التي تلته، وقلما حادوا عنها لأنها مقبولة صدرت عن عقل عظيم نجذته التجارب، وأيده العلم والأدب.

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الأول من القرن الثاني هذا الإنشاء العربي حلة جديدة، فيها المتانة وفيها الرشاقة، وأكثر ما بدا في تضاعيفها الإطالة في غير ما إملال من سجع وترصيع، إنشاء يسير مع الطبع، ومع الطباع التي توائم أهل الحضارة، ممن يفصلون ويتوسعون، ويعيدون ويبدون، ومقاصدهم تحوم حول التأثير في أذهان السامعين والقارئين، وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة؛ ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة -فيما بلغنا- مألوفة في عامة دور الأمويين، لأن هؤلاء عرب أقحاح، وكتّابهم على شاكلتهم، يحاولون بالإيجاز في مكتوباتهم، أن يتركوا للقارئ شيئًا من المعاني يفسرها بما يريد ويمتعوه بشيء من الحرية، ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة، فيكون لديه المختصرات، والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها.

اقتبس عبد الحميد هذه الطريقة من الأمم المجاورة وخاصة الفرس، ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب، بل فيها المطول المسهب، والمتشعب المتعب. ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك إلى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لبس ولا إشكال، ومن مواجب الحضارة الإسهاب، ومن دواعي البداوة الاقتضاب؛ فعبد الحميد إذًا تشبع بروح الدولة وروح حضارتها التي بلغت في أيامه أعلى قممها، ورسم ببراعته صورة ما أحاط به واقتضاه الحال؛ ولو حاول -وقد بلغت الأمة ما بلغته من درجات التقدم في كل شأن من شئون المجتمع- أن يعود بالكتابة إلى إيجازها القديم، لما أفاد جديدًا، ولما رجع ذاك الصدى في سلطان دولته، ولما وصف محيطه حق وصفه. ومن الصعب أن يتعدى المرء حدود البيئة، ولا عليه فيما أتاه ما دامت حال الدولة تتطلب التوسع في الخُطا إلى الأمام، وأن تجدد أوضاعها على ما توجبه الحال، وطبيعة الملك والحضارة، على أن لا يهدم في عمله أصلًا من الأصول القديمة؛ وفي هذا كان جماع المكانة التي بلغها عبد الحميد بإنشائه، فهو مخترع طريقة، وكاتب وصاف على الحقيقة، استجمع شروط البلاغة، فعد أمير المنشئين غيرَ مدافَع، واستطاب الناس إلى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب، وأين من يشاكله فيه، أو تسمو قريحته إلى مستواه في فنون الكتابة، وحسن التصرف على ما يشاء؟